منارات

manarat

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة الأيام للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5375) السنة العشرون - الاربعاء (22) شباط 2023

إيفان بونين

بونين وسحر الشرق

أيغور يرماكوف
إعداد و ترجمة: د . إبراهيم إستنبولي

في آب من عام ١٩٥٣ توفي إيفان بونين (١٨٧٠ - ١٩٥٣) .. الذي نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٣ .. وقد اشتهر بونين بشغفه بالشرق مما دفعه أكثر من مرة إلى زيارة بلدانه المختلفة، حيث تعرّف على حياة شعوبها و على عادات أبنائها و تقاليدهم .. وقد انعكس إعجابه بالشرق و بأهله في أشعاره و في قصصه و مذكراته ..

امتد طريق الإبداع عند ذلك الإنسان حوالي ٧٠ عاما، إذ صدر له أول ديوان شعر في منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر. وقد اتسم الإبداع الفني لإيفان بونين في ذروة عطائه بسعة الأفق وبعمق النظر إلى درجة مدهشة ...فقد صارت قريبة إلى عقله و قلبه جميع الأزمان و البلدان، المبادئ الإنسانية العامة بخصوص الخير، الجمال و العدل. لم يكن هناك، على الأرجح، كاتب مماثل استطاع أن يتحسس بدرجة عالية و أن يستوعب وعيه بنفس الحدّية تلك العصور البعيدة ما قبل التاريخية، روسيا، الغرب و الشرق. وقد ساعد في إنضاج وتفتح مواهبه ترحاله المستمر - تنقلاته في بلدان العالم. في عام ١٩٠٧، وخلال استعداداته للسفر إلى الشرق الأوسط ، من أجل القيام برحلة حج نوعاً ما إلى "الأراضي المقدسة"، قام بونين بدراسة وتعلم الإنجيل والقرآن، وبالاطلاع على الدراسات المتعلقة بالشرق القديم - بمصر .

القدس، فلسطين. أثناء تنقله لم تكن تفارقه قصائد الشاعر الصوفي المفضل لديه سعدي، الذي كانت حياته موضع إعجاب الكاتب الروسي: "بعد ولادته، استثمر ثلاثين عاما لاكتساب المعرفة، ثلاثين عاما في الترحال وثلاثين أخرى في التفكر، التأمل و الإبداع" . وقد عبّر الكاتب عن الغاية من تنقلاته مستعيراً كلمات الشاعر المسلم العظيم: "... أنا، كما قال سعدي، سعيت لكي أتعرف على الدنيا و لكي أترك فيها انسكابة من روحي" . لقد زار بونين أكثر من مرة كل من تركيا، شواطئ آسيا الوسطى، اليونان، مصر بما في ذلك بلاد النوبة Nubia ؛ كما تنقل عبر سوريا، فلسطين، وزار الجزائر، تونس وأطراف الصحراء الغربية؛ سافر بحراً إلى سيلان، وبراً عبر كل أوروبا. "أما بخصوص تنقلاتي و أسفاري، فقد نشأت لدي فلسفة خاصة - كتب بونين في عام ١٩١٢ - أنا لا أعرف ما هو أفضل من الترحال « .

البحث عن أجوبة على الأسئلة التي تهم البشرية جمعاء بشكل دائم: حول معنى الحياة، حول الغاية من خلق الإنسان، عن العلاقة المتبادلة و الارتباط المتبادل بين أشكال الوجود ككل، حول المغزى من التاريخ، حول أسباب نهوض وموت الحضارات، وكذلك الأفكار حول الاعتقاد و الإيمان، حول سعي الشعوب إلى الحقيقة، الخير و الجمال، وفي ذات الوقت التعطش الدائم لأن يرى بنفسه العالم الشديد التنوع - كل هذا كان يغذي الخيال الجامح للفنان، يوقد فكره و كلمته .

وأكثر ما جذبت اهتمام بونين تلك البلدان و العصور، حيث التقت البدايات و النهايات، حيث تجذّرت "منابع الأيام"، حيث تصادمت الطاقة الخلاقة للروح مع البربرية، الإبداع و الاستبداد. لقد شاهد أنقاض البارثينون اليوناني وقرطاجة الفينيقية، الأهرامات الهائلة في مصر، أضرحة الفراعنة الموغلة في القدم، أطلال حيفا في فلسطين مع الجدران الضخمة و مقابر يفوق عمرها أربعين قرناً . لكن أكثر ما أدهشته بعلبك، بقايا معبد الشمس، "الذي تفوق مقاييسه كل ما أنجزته يد الإنسان" . لقد سحرت بونين تلك المنحوتات الصخرية، التي كانت قد صنعت في تلك الأزمان الغابرة، "عندما كانت الأساطير عن العمالقة ما زالت تضج بالحياة « .

"معبد الشمس" - هذه هي التسمية التي أطلقها على الطبعة الأولى من ديوان قصصه النثرية التي كتبها خلال أسفاره، والذي اسماه في طبعته الثانية بطريقة لا تقل شاعرية: "ظلّ الطير" . الغريب هو أن الروايات - الأسفار الشرق أوسطية كتبها بونين بالتزامن مع الكتابات ذات الطابع الروحي الروسي الأصيل مثل "القرية" وغيرها، التي كتبها خلال الأعوام ١٩٠٧ - ١٩١١ . لقد وضعها بونين إلى جانب بعضها وخصّها باعتبارها الأكثر أهمية. في بعضها - روسيا، الحياة الروسية اليومية. في البعض الآخر - الشرق، الطبيعة الخلابة، العراقة والعاديات. هذه هي العناوين العربية لقصائده: "ليلة القدر" ، "محمد في المنفى (الهجرة)" ، "امرؤ القيس" ، "البدوي" ، "القاهرة" ، "القافلة" . وهذه بعض قصصه عن الشرق الأوسط: "الدلتا" ، "بحر الآلهة" ، "اليهودية" ، "ظلّ الطير" ، "معبد الشمس" ، "صحراء الشيطان - كلها تحكي عن مصر، لبنان، فلسطين، عن الخلود و لحظية الحياة.

أما القصائد "الإسلامية" فهي كثيرة جداً عند بونين لدرجة أنه لو لم تكن معروفة تفاصيل حياته اليومية و كينونته، لكان من الممكن الاعتقاد أن هذا الأخير بين الكتاب الروس الكلاسيكيين العظام - لم يكن يفارق القرآن أبدا ، كما لو انه كان يحمله معه في حقيبة سفره طوال حياته. بل إن الواقع هو كذلك . فقد كانت نسخة من القرآن بترجمة أ. نيكولاييف (لقد تم التثبت من أنها نسخة صادرة في موسكو عام ١٩٠١) بالنسبة لأيفان الكسييفيتش بمثابة واحد من أهم وأكثر الكتب المقروءة لديه. ففي القصائد، المملوءة بنفحة الشرق الإسلامي، نجد أن الشاعر الروسي كان يتبع القرآن بشكل مباشر، وأحيانا كان يكرر آيات الكتاب المقدس للمسلمين. عدا ذلك، إن بونين قد تابع بإحساس الوارث الشرعي الخاص تقاليد بوشكين و "محاكاته للقرآن» .

و مع ذلك، إن قصائد بونين الشرقية لا تعتمد مصادر كتابية و حسب . ففي تلك الأشعار يمكن تلمّس ليس فقط الافتتان بالزخرفة لوحدها، التي تمتاز بها عادة القصائد السطحية للشعراء - الرمزيين.

لقد سافر بونين في أرجاء الدنيا أكثر بكثير من جميع أولئك الشعراء . و رغم ذلك، فإنه كان من جديد يلبي النداء القاهر ويعود إلى بلاد الإسلام... لكن القصائد، التي تم نظمها أثناء الرحلات أو التي ظهرت إلى الحياة عن طريق الذكريات، كانت تخرج قبل كل شيء من الإحساس المباشر بالأرض و الهواء في البلدان المكتشفة، المدن و البلدات ، الحدائق و الصحارى التي اغرم بها .

هنا مملكة الأحلام
على امتداد مئات الفراسخ
الشواطئ مقفرة عارية مالحة .
لكن الماء فيها - بلون الزمرد و السماء
و الحرير الأبيض أشد بياضا من الثلج .
في حرير الرمال مجرد نبات الشيح الأزرق ،
يرعاها الله لأجل قطعان الغنم الرحّل ،
و السماوات هنا زرقاء لدرجة لا تصدق،
و الشمس فيها - كما نار جهنم ، سَقر .
وفي ساعة القيظ ، حين السراب المصقول
يُغْرِقُ العالمَ بأكمله في نوم عميق ،
في بَريق لا نهائي، خلف حدود الأرض الحزينة،
يحمل الروح إلى حدائق الجنة .
وهناك يجري، هناك يصب خلف الضباب
نهرُ كل الأنهار، الكوثر اللازوردية ،
و لكل الأرض، لكل القبائلِ و البلدان
يمنح الهدوء . اصبر، صل - وآمن .

إن قصائد بونين (و كما هي قصصه، بالمناسبة) كانت تستند بشكل أساسي على المعاناة الشخصية العميقة. بغض النظر عن الموضوع. فقد كان قادراً أن يكتب في نفس اليوم عن سماوات الشمال الروسي، شواطئ نهر الدنيبر أو نهر أوكا، كنائس صقليا و غابات سيلان ... ففي العشرات من قصائده نجد هذا المسيحي الارثوزكسي الغيور، الذي يفاخر بأصوله الروسية النبيلة، و قد استطاع أن يتقمص بالكامل شخصية المسلم، الدرويش المتجول، و الحاج إلى المقدسات... وتارة يتحول إلى مغنٍّ يتغنى بالهناء في أجواء الحريم، و أحيانا أخرى إلى شاهد على خلق العالم من قبل الله و شاهد عيان على يوم الحساب العظيم.

لقد شاهد بونين مختلف جوانب العقيدة الإسلامية و الحياة الإسلامية . كان مستعداً، وهو في رمال الليالي، أن يثق بالمثل العربي: "أيها المسافر، لا تخف! هناك في الصحراء كثير من الروعة و السحر . هذه ليست أعاصير، بل إنها الجن تُقلق الصحراء. هذا هو الملاك، خادم الرب الرحيم، قد قذفَ شياطين الليل بسهم ذهبي" . ففي بعض القصائد، مثل "ليلة القدر" ، "تسبيح" ، "الحجر الأسود للكعبة" ، "المقام المقدس" ، "أبراهام . القرآن، السورة السادسة)، "إبليس والإله، "الطير" ، محمد في المنفى" ، "الفقير" ، "الخالد" ، "عرش سليمان" ، "الحجيج" ، "يوم الحساب" وفي مجموعة أخرى من القصائد المكتوبة في أعوام مختلفة، نجد أن الشاعر الروسي يتحول إلى روحاني إسلامي متحمس، بل ويظهر كمتصوف حقيقي.. وتعتبر قصيدة "السر" من عيون الكنوز الشعرية عند بونين، تلك القصيدة المرفقة باقتباس من القرآن : "ألم ..» .

زفر على المدية - و إذ بشفرةِ
خنجرِه السوري
تلمع في الدخان الأزرق :
و في الدخان لمعت بوضوح أكبر
على الفولاذ رسوم ذهبية
محفورة بزخرفة من ذهب.
« باسم الله و النبي ،
اقرأ، يا عبد السماء و القدر،
نداءك المهين: قل، بأي
شعار قد زُيِّن خنجرك ؟ «
قال هو : "شعاري رهيب .
إنه - سر الأسرار : ألف . لام . ميم «.

« ألف . لام . ميم ؟ و لكنها إشارات مبهمة
كما الطريق في ظلمة الحياة الآخرة :
أخفى سرّها محمد ... «
« اصمت ، اصمت ! - قال بحدة -
لا إله إلا الله،
أكثر الأسرار بأساً - لا سّر اكبر «.
قال ، لامس بالسيف ذو الحدين
الجبين تحت عمامة الحرير،
و ألقى على أتميدان القائظ
نظرة فاحصة كسولة كطير جارح -
و أخفض رموشه الزرقاء الهادئة
من جديد على السيف ذو الحدين .

كما إن قصائد بونين الكثيرة في الغزل هي الأخرى حسنة، والتي تبرز فيها الحان وصور إسلامية. مثلاً، قصيدتان عن الحسناء - اليهودية صفية، زوجة الرسول. في إحداهما، الثمانية الرائعة والتي تسلب شغاف القلب، نجد كيف أن النبرة الدنيوية، الخفيفة بعض الشيء، تتحول فجأة إلى احتفالية:

صفيّة، وقد استيقظت، راحت تجدل بيد
زرقاء ماهرة خصلات الجدائل السود:
« الكل يعيرني، يا محمد، باليهودية « -
تتكلم عبر الدموع، و دون أن تمسح الدموع.
محمد، وهو ينظر مع ابتسامة ساخرة و بحب،
يجيب بوداعة : "قولي لهم ، يا صديقتي :
أبراهام - أبي ، موسى - عمي ، و محمد - زوجي « .
إن النبي و بكلمات قليلة يؤكد صلته بالتوراة، و التعاقبية في رسالته .

لقد امتزجت الألحان والموضوعات الإسلامية في إبداع بونين مع الحان وموضوعات التوراة والإنجيل . وبمعنى ما إن "الديانات السماوية" الثلاث كانت بالنسبة له ديانة واحدة. لكن بونين استطاع أن يشعر بخصوصية الإسلام. ففي قصيدته "الراية الخضراء"،

والتـي تبدو كما لـو أنها دعوة غير متوقعـة نهائياً من فم مسيحـي أرثوذكسي – إلى الجهـاد المقدس، نرى الشاعر مغموراً بإلهام حانق:

.. لقد غفوتِ ، لكن نومك – أحلام ذهبية .
أنت عبْرَ أربعين ثوباً من الحرير
تتنشّقين رائحة الورود و تتنفسين العفونة –
عطر القرون .
و لكنك تنامين بسلام، يا مجد الشرق !
وقد فتّنتِ القلوب
إلى الأبد . ألستِ أنتِ التي شيّدكِ جبرائيل
فوق رأس النبيّ ؟
و ألستِ أنت تسبحين فوق الشرق إلى اليوم ؟
استديرِي ، انهضي –
و سينهض الإسلام، كما لو " سموم " الصحراء،
إلى الجهاد المقدس !

إن القرن العشرين المليء بالكوارث البشرية قد غيّر بشكل جذري حياة الشعـوب الإسلامية. فقد انعكست عميقاً في شعـر بونـين الأمـواج العاتيـة للعصر الحديـث؛ وكانت بعض قصائده مثـل "أمـواج" و"أحفاد النبـي" عبارة عـن صـدى مباشر لمـا يحـدث في السياسة العالميـة . لقد كانـت عزيزة على قلب الشاعر الروسـي مشاعر الاعتزاز والكرامـة لدى المسلـم في وجـه المحتلـين والمستعمرين الأوروبيـين. و قد ظلّ بونين حتى نهاية عمره يحلم بذلك التمازج الساحر بين الحكايـة الشرقية والحياة المنفتحة

و كانت تدعوه باستمرار إلى السفر :

الصحراء في ضوء خافت، ملتهب.
وخلفها – ظلمة وردية .
هناك مآذن و مساجد،
وقببها المزخرفة.
هناك صخب النهر، السوق المسقوفة،
حلم الأزقّة، ظلال الحدائق –
وهي تغفو، تفوح بالعسل
على الأسطح أوراق الزهور.

نجـد أن إدراك الطبيعـة، الشواهـد الأثريـة القديمـة و الحيـاة المعاصـرة لشعـوب الشرق الأوسـط يتماهى في سلسلـة اليوميات – الروايات الشعرية "ظلّ الطير" مع تأمـلات مستفيضـة – فلسفية، تاريخيـة، دينية، أخلاقية وجماليـة . هكذا تتحول الرحلة في المكان إلى ارتحال في الزمـان أيضا. إذ أن بونين يزيل حدود الزمان و الفضاء، يجعـل من قرائـه مشاركين له في مختلـف التنقيبات عند الشعـوب بـدءاً من أيـام أبراهـام قبـل التاريخية وحتى أيامنا هذه .

وفي مصر، عنـد هـرم خوفـو العظيـم، و هـو يلمس "الأحجار، التي هي ربما من أقدم الأحجار التي اقتطعها البشـر"، عاشـ بونين إحساس الاتحـاد الأخوي مع ذلك الأسـير العربـي المجهول، الـذي شيّد هـذه الأحجار. إن هـذه المشاركـة الوجدانية مـع الماضي قد ألهمـت أفكاره بخصوص مسـيرة التاريخ، دافعة إياه إلى التفكير حول أسباب انهيار الحضارات وحول سبل التطور الإنساني. اليـوم، في هـذا الزمـن الصعـب الـذي يعيشـه الشعـب الروسي، ودولتـه و ثقافته، فإن بعض صور بونين تبدو كما لو أنها نبوءات حقيقية ذات قيمة لا تزول . لقد جذبت بونين مساعـي الإسكندرية القديمـة "لأن تتحول مركزاً لجميـع الديانات وجميع المعـارف القديمة والتاريخية". لقـد أعجب بالشعـب المصـري العريق، الـذي "لم يعرف مثيـلاً له لا في العمـل، لا في تشييد الآثار، لا في المعارف، ولا في الأخـلاق، ولا مـن حيث الشجاعـة، التـي كانـت تتواجـد إلى جانـب تواضع جم وثقافـة مدهشة بالنسبة لعصـره". كمـا أدهشتـه إنسانية هذا الشعـب، الذي "لم يعرف عبودية المرأة"، "وكان يقدس الحياة بكل أشكالها وتظاهراتها"؛ كمـا كان يقدّر عالياً الخـير، الذي أصبح "الحجـر الأساس في عقيدتـه وفي جميـع تشريعاتـه اليومية».

أمـا في تركيا، في مدينة اسطنبول المعاصرة للكاتب، فقد كانت مدعاة للسعادة عند بونين الحرية و العيش المسالم المشترك للشعـب المكافح من مختلف القوميات . لقد لحظ هنـاك ولادة توجهات إنسانية جديدة، التي أعلنتها تركيا فيمـا بعـد للعالم؛ كما شاهـد "التسامح الـذي لا مثيل لها تجاه جميع اللغات، تجاه جميع العادات و التقاليد، تجاه جميع المعتقدات».

عن موقع جهة الشعر

لا تزال الأسئلة حائرة حول «حياة آرسنياف» لإيفان بونين

إبراهيم العريس

مـا من كتاب يثير حـيرة وأسئلة نقـاد الأدب ومؤرخيه في القـرن العشريـن بقـدر مـا يفعـل كتـاب "حيـاة آرسنيـاف" للشاعر الروسي إيفـان بونين (نحتفل هذا العـام بالذكـرى ١٥٠ لولادتـه). فعلى الرغم مـن العدد المعتدل لصفحات الكتـاب في صيغته "النهائية" (٣٨٨ صفحة في الترجمة الإنجليزية الصادرة عام ١٩٥٢ في نيويـورك) يتـوزع الكتاب في أصولـه الروسية أجزاءً عديـدة قد يكـون معظمها صدر تباعاً بـين عامي ١٩٢٧ و١٩٣٩ في فرنسـا ثـم بلجيـكا. بـل أن بونـين نفسـه كان بعـد أن يصـدر جـزءاً يعود ويعمل عليـه مبدلاً في الأحـداث والشخصيات بل حتـى في أسماء شخصيات لا يبـدّل لا من موقعها ولا مـن أهميتها في السياق. كان مـن الواضح أنه بعد صياغتـه الأولى يتطلع إلى تغيير الكتاب جذرياً. وهو قال على أية حال مراراً وتكراراً أنه إنما يريد أن يكتـب رواية "في ثلاثة أجزاء" لا سيرته الذاتية.

ومـع هـذا لا ينظر معظـم النقاد ومؤرخـو حياة بونين إلى الكتـاب في مجمله إلا على أنه بشكل أو بآخر سيرة ذاتيـة له. وفي النهايـة يبقى السؤال: هـل نحن بصدد سـيرة ذاتيـة؟ ربما، ولكن مـا الذي جاء يفعلـه فيها أخ متخيّل لصاحب السيرة يظهر ويختفي من دون أن يقال لنـا إنه يفعل ذلك في حلـم أو في كابوس؟ وإذا كنا أمام روايـة لمَ ذلـك التطابق بيّن سيرة عائلـة بونين كما هي معروفةَ وسـيرة آل بوغدانوف المتخيّلة؟ هل نحن أمام رواية تستعـير أحداثها وبعض شخصياتها من حياة الكاتب، أم أمام سيرة ذاتية تسعى إلى تضليل القارىء بين الحين والآخر؟

كل هـذه أسئلة مشروعة بالنسبـة إلى هذا الكتاب الذي يُجمـع النقاد علـى اعتبـاره، في الأحوال كافـة، أقوى كتـاب أصـدره إيفان بونين بعد تركـه وطنه للعيش في باريـس علـى وجه الخصوص وكذلك في مـدن غربية غيرهـا. ولئـن يكون مـن الصعـب اعتماد "عنـد منبع الأيـام" كسـيرة موثوقة للكاتـب، من الواضـح أن في الإمـكان النظـر إليـه كصورة مـن حياة مثقـف روسي عاشـ تجربة الوطـن وتجربـة الغربة سـواء بسواء. تجربـة الريـف وتجربة المدينـة، فشـاء في نهاية الأمر أن يعـبّر عنها ولو بصيغ مواربـة أحيانا. هذا من دون أن تفوتنـا روعـة الجـزء الأول المعنـون بـ"في منبـع الأيام" الذي يصف فيـه بونين، مباشرة هذه المرة على الأقـل، الطفولـة التـي عاشهـا في ريفه الهـادىء البليد والـذي عايشه من دون أحـداث تذكر متوقفاً عند تشابه الأيام والفصول وحتـى مواسم الجنازات التي يصفها بشـكل رائـع، وصـولاً إلى دراساته الثانويـة في بلدة صغـيرة مجاورة والعُليا في خاركوف التي شهدت أول "أمجـاده" الأدبيةِ قبل انتقالـه إلى العاصمة ومن ثمّ إلى الغـرب مهاجراً حين اندلعت الثـورة البلشفية التي سيشعـر أن عالمها غير عالمـه! وستتولى الأجزاء التالية بقيـة الحكاية التي يطالعنا فيهـا المدعوّ آرسانياف هذه المرة وقد تفاقمت أزماته الشخصية بقدر ما راحت تزيد شهرته ككاتب بات معترفاً به من دون أن يخفف ذلك من حسّه المأساوي الذي كان يطالعنـا باكراً وبشكل شديد الروسيّة، في "عند منبع الأيام».

في نهايـة الأمر لم يكن فوز إيفـان بونين بجائزة نوبل الأدبية في ١٩٣٣ مفاجـأة لأحد، فالاعتراف به بوصفه واحـداً من كبار شعراء الثلث الأول من القرن العشرين كان أمـراً طبيعياً. ومع هذا فإنـه كان أكثر الناس غيظاً يومهـا، وذلـك بكل بساطـة لأن الصحافـة العالمية التي كانت تتابع ما يجري في موسكو من محاكمات وصراع علـى السلطة تحت ظل ستالين، وجـدت في فوز بونين بجائزة نوبل "ضربة موجهة إلى الستالينية" باعتبار أن بونـين يعيشـ منفيـاً في فرنسـا منـذ قيـام الثورة الروسية ومبارحته وطنه.

بالنسبـة إلى بعض الصحافة لم يكن فـوز بونين نابعاً من أهميتـه كشاعر وكاتب، بل من أهميته كمنشق معاد للنظام السوفياتي. طبعاً، احتاج الأمر يومها إلى تدخلً كبار النقاد وكبار دارسي الأدب والشعر الروسيين قبل أن يُعـاد الاعتبـار لفوز بونين بالجائـزة العالمية، وقبل أن يكتشف القراء الجـادون أنهم، حقاً، أمام كاتب كبير لا يقـل أهمية عـن كبار الكتـاب والشعـراء الروس من بوشكين إلى تولستوي ومن تشيكوف إلى غوركي.

مثـل غيره من كبار الكتاب الروس لم يكفّ إيفان بونين يوماً عن الكتابـة عن روسيـا، وعن شعبهـا وتاريخها وآلام فلاحيهـا. فهـو، علـى الرغم من تحـدره من عائلة أرستقراطيـة مـن مـلاك الأراضـي الكبـار، كان يشعر بـالألم مـع ذلـك الشعب الـذي ينتمـي إليه وبـكل قوة، تماماً كما كان يحس بالاتحاد مع طبيعة وطنه الروسي وتضاريسه.

ولقـد ولد إيفان بونـين عـام ١٨٧٠ في مدينة نوروني وأمضـى طفولته كلها في أراضـي العائلة وسط "بحر مـن القمـح والعشب والأزهـار" كما سيقـول لاحقاً في واحدة من قصائـده. والحال أن عمله الشعري والنثري سيظـل مطبوعاً بتلـك الرؤى والمشاهـدات التي طبعت سنـوات طفولتـه. وحتـى في سنـوات عمـره الأخيرة وهـو يعيشـ في باريـس، حيث سيرحل عـن عالمنا في خريـف عـام ١٩٥٣، ستظـل الصـور التـي يعـبر عنها بونـين هي، هي، الصور المستمـدة من سنوات طفولته الروسيـة العريقة تلـك. وكان إيفـان في التاسعة عشر مـن عمره حـين اضطرتـه ظـروف أسرتـه الماليـة إلى العمـل في الطباعـة، ولقد مكنه هذا مـن الانصراف إلى القـراءة وبدأ يكتـب أولى أشعاره، وهـي أشعار لفتت إليـه الأنظار، فكان أن أوصلتـه في عام ١٩٠١ إلى أول اعـتراف رسمي بـه كشاعر مجيـد، وكان ذلك حين منح جائزة بوشكـين عن مجموعته "سقوط الأوراق"، غير أن تلـك المجموعة لم تكـن الأولى بالطبع، إذ كان بونين قـد بدأ ينشـر مجموعاته تباعاً منذ عـام ١٨٩٣، فكانت مجموعـة "أخبـار الوطـن" ومجموعـة "في الكوخ" ثـم "تفاحـات أنطونوف" في عـام ١٩٠٠، وهـي كلها مجموعـات ثبتت مكانة شاعرنا بوصفه واحداً من أبرز الكلاسيكيـين الشبـاب. وكلمة كلاسيكيـين لا تأتي هنا اعتباطاً.

فالحـال أن بونـين الـذي أبدى حسـاً تقدميـاً كبيراً في مواضيعـه كان يصر على كلاسيكيـة الشكل في انتمائه إلى الشعـر الروسي كما تجلى خلال النصف الثاني من القرن التاسـع عشر. غير أن ما ظل يطبعه كان التصاقه بالطبيعة التي لم ينفصل وصفها لديه عن وصفه لبؤس الشعـب، ابن الطبيعة البـار، ولقد قـاده تأمله للطبيعة إلى نوع من النزعة الصوفية، قاده بالتالي إلى الاهتمام بالأديـان السماويـة لا سيما البوذيـة والإسلام، وراح يدمج منهما في شعره تعابير وموضوعات ملفتة.

وفي عـام ١٩٠٥ مـع اندلاع الثـورة الروسيـة الأولى، وعلـى عكس ما كان يمكنٍ أن يُتوقـع منه، أحس بونين بالفـزع وبـأن ثمـة عالمـاً بأسـره ينهـار أمـام ناظريه، عـالم يود لـو يتمسك به رغـم مساوئه. ومـن هنا، راح إيمانـه بكل شـيء يتزعـزع وإن ظل يكتـب وينشر من دون انقطـاع. وحـين اندلعت الثـورة البلشيفية حاول أول الأمـر أن يتماشـى معهـا، لكنه عجز عـن ذلك وهو الرومانسـي الأرستقراطي، فهاجر في عـام ١٩٢٠ إلى فرنسـا. وهناك، على الرغم من أنه بات مُقلاً في الكتابة والنشـر، وفضل أن يخلـد إلى شيء مـن الصمت، راح مجـده وشهرتـه يكـبران، وكل ذلـك دأبـه حتـى فوزه بجائـزة نوبل في عام ١٩٣٣. وهـو رغم ذلك الفوز ظل دائـم الحـزن شديد التشـاؤم ليس إزاء مصـير روسيا وحدهـا فحسـب، بـل إزاء مصـير الشـرط الإنسـاني بأجملـه، وقد انعكس ذلك التشاؤم على شعره ونثره لا سيما في كتابه الأشهر "حيـاة آرسنياف" الذي يغنينا في معظـم فصوله عن قراءة أية سـيرة حقيقية له حتى إن كانت علامات الاستفهام ستبقى كثيرة حول "وصفه الحقيقي" لحياة هذا الشاعر.

في أواسـط الخمسينيـات بـدأ السوفياتيـون يهتمون بإيفـان بونـين وشعـره، ونشـرت مختـارات مهمة من أعماله في موسكو عام ١٩٦٧ لتجعل منه وجهاً آخر من "وجوه الشعراء والكتاب الروس الكبار الذين صنعوا لـلأدب الروسي أمجاده الكبرى". علـى حد تعبير أحد النقاد الروس.

عن الاندبندنت عربية

إيفان بونين أكثر أدباء روسيا اهتماما بالحضارة العربية

سامي عمارة

هو أحد أهم أدباء روسيا وشعرائها ومترجميها وأكثرهم إثارة للجدل، ولعل ما يحفل به تاريخه من مفارقات، وما يرقى منها حدّ التناقضات، يقول بتفرد إيفان بونين وتميزه عن أقرانه، ممن اعترفوا له لاحقاً بأنه كان الأحق والأجدر بجائزة نوبل للآداب التي فاز بها عام ١٩٣٣. شاءت الأقدار أن يولد بونين بين أحضان الطبيعة الروسية عام ١٨٧٠، في العام ذاته الذي ولد فيه فلاديمير لينين زعيم ثورة أكتوبر (تشرين الأول) البلشفية. قُيِضَ له أن يعيش ويعايش الكثير من أهم أحداث العصر واللحظات الفارقة في تاريخ الوطن، بداية من الحرب الروسية- اليابانية عام ١٩٠٥، وحتى ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧، مروراً بأحداث الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، قبل أن يعقد عزمه ويتخذ قراره حول الرحيل طواعية إلى منفاه الاختياري في المهجر، إلى باريس التي سبقه إليها الكثيرون من خصوم ثورة أكتوبر، من النبلاء والعسكريين والفنانين والأدباء.

غادر بونين الوطن الأم ولم يكن مضى سوى سنوات معدودات على "ثورته الاشتراكية" التي غيرت كثيراً من ملامح المنطقة والعالم، محملاً بالكثير من مآسيها، وبما ناء به كاهله من أفراح وأتراح راكمها خلال سني حياته الأولى بين ربوع هذا الوطن. لكنه كان رحل بجسده فقط، كما يقال. فقد ظل حتى النهاية روسي الروح والمشاعر، وهو ما أودعه عشرات المؤلفات التي ذاع صيتها وانتشرت لتبلغ مختلف أرجاء الوطن، من منفاه الاختياري في باريس، قبل أن يرحل عن دنياه في تاريخ ذكرى تلك الثورة في عام ١٩٥٣. ولكم كانت سخرية القدر صارخة زاعقة، حين جمعت أيضاً بين تاريخ وفاته، والعام الذي وافت المنية فيه جوزيف ستالين.

الشاعر والأديب

إنه الشاعر والأديب إيفان بونين آخر أدباء جيل العظماء في تاريخ الإمبراطورية الروسية، وأول الفائزين من أبناء جلدته بجائزة «نوبل للآداب» في عام ١٩٣٣. ننقل عنه ما كتبه عن سيرته ومسيرته.

قال بونين، "وعلى الرغم من ارتباطه بالقرية، منذ مولده في فورونيج جنوب غربي روسيا، في ٢٢ أكتوبر ١٨٧٠، كان كثير الترحال، ليس فقط في ربوع روسيا، بل وبعيداً عما وراء حدودها".

تحدث بونين عن نفسه، قال إنه الابن الثالث في سلسلة أخواته، وكانوا تسعة، لم تُكْتَب الحياة سوى لأربعة منهم فقط، نشأوا وترعرعوا في كنف أسرة من النبلاء تعود أصولها إلى القرن الـ ١٥، وإن جار عليها الزمن لاحقاً، لتقصر اهتمامها على توفير التعليم المناسب للطفلين الأول والثاني. كشف عن أن ذلك كان ما دفع الأسرة إلى الرحيل بحثاً عن مسكن مناسب في فورونيج التي بها أبصر النور. وعبر الكثير من المحن والمتاعب تنقل بونين بين ربوع روسيا محملاً بذكريات شغل فيها بوشكين كبير شعراء روسيا وأشهرهم موقع الصدارة، ما كان مقدمة لظهور مواهبه الأدبية، ولم يكن تجاوز الـ ١٥ من العمر. لكنه سرعان ما تلمس طريقه إلى الشهرة اعتباراً من الـ ١٩، ببعض أشعار نشرتها إحدى المجلات الأدبية في مدينة أوريول، لتسجل مولد أحد أهم شعراء العصر.

تواق للشعر والحياة

عرفته الأوساط الاجتماعية والأدبية «تواقاً للشعر والحياة»، متنقلاً بين مختلف المدن الروسية، حتى وصل موسكو وبعدها بيتروغراد، أهم مواطن العلم والثقافة والفنون. تعرف إيفان بونين في موسكو إلى ليف تولستوي وأنطون تشيخوف وماكسيم غوركي وفيدور شاليابين وغيرهم من أبرز مشاهير المنتديات الفكرية والأدبية. ومن موسكو إلى بيتروغراد بما كانت تعج بهم من رموز أدبية، انطلق بونين صوب ما كان يصبو من آفاق، سرعان ما عادت عليه بـ «جائزة بوشكين» عام ١٩٠٣، لتفتح له كثيراً من أبواب الشهرة والمجد.

ولم يمض من الزمن الكثير حتى شد بونين الرحال إلى الكثير من المدن الأوروبية ومنها إيطاليا وتركيا واليونان. بل وجاب جنوب وشرق المتوسط. كثيراً ما نفض بونين عن كاهله حياة الدعة والهدوء. نزع إلى الترحال بحثاً عن عالم أكثر رحابة وجده في رحلاته إلى الشرق، وكانت مصر منها في القلب، حين اختار التوجه منها شرقاً إلى لبنان وفلسطين وبقاعها المقدسة بوصفها مهبط الأديان، أو غرباً إلى تونس والجزائر. ذكرياته في هذه البلدان أودعها روائعه التي اصطبغ الكثير منها بصبغة عربية دينية روحانية، حفلت كتب التراث بما جادت به موهبة إيفان بونين، ومنها ما سجله حول رحلته التي قام بها في ربيع ١٩٠٧ إلى تركيا واليونان ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين، يافا والقدس وحيفا، وبيت لحم مع زوجته فيرا مورومتتسيفا بونينا.

"ظلال طائر»

وكان بونين عاد مرة أخرى في ١٩١٠-١٩١١ ليزور مصر وتونس والجزائر متأثراً بحبه للشرق المسيحي والإسلامي، وبحثاً عن معين لا ينضب لفنه وأشعاره ما انعكس لاحقاً على إنتاجه وابداعاته من القصص والأشعار، ومنها ما سجله في مجموعته التي اختار لها عنوان "ظلال طائر" أو "ظل الطير" بين عامي ١٩٠٧ و١٩١١.

قال "ولدت لأكون شاعراً"، وإن كان له في عالم النثر قسط وافر من الإنتاج يظل يضعه في مصاف كبار أدباء عصره حتى اليوم، بعدما كان خرج من رحم الطبيعة وعالم الكناية والتورية، وعشق الأغاني والأساطير والموروثات، منتفضاً على واقع عصره وما شهده من تحولات اجتماعية ظالمة في معظمها. لم يحظ بونين بالشهرة المستحقة في مستهل حياته الأدبية لأسباب عزاها إلى عدم التصاقه بأي من المدارس الفكرية أو الأدبية في ذلك العصر من جانب، ولعدم استقرار محل إقامته من جانب آخر، وهو الذي كان يهوى السفر والرحلات داخل روسيا وخارجها كما أشرنا سابقاً.

ومن هنا قالوا عنه، "لم يكن بونين في حاجة لأن يعيش في روسيا، ليكتب عنها. لقد كانت روسيا تعيش فيه، بل وكان في مجمله هو روسيا».

ويذكر معاصروه، ما قاله بونين في خطابه الذي ألقاه لدى تسلمه "جائزة نوبل للآداب" في ستوكهولم، تعبيراً عن ذاته، وذات كل من اختار المهجر موطناً، تعتصره مشاعر حب الوطن وحب لغته الروسية، "لقد حملت معي روسيا، حملت الواقع والحقيقة. فنحن لا نستطيع، أينما كنا، ووقتما كنا، إلا أن تسكن روسيا كل كياننا".

قال أيضاً، "إنكم ولأول مرة منذ تأسيس جائزة نوبل، منحتموها إلى طريد. وإلا فمن أكون؟ إنني طريد أتمتع بكرم وفادة فرنسا، التي أظل أحظى بكرم وفادتها، وهو ما أحتفظ لها وإلى الأبد، بشديد امتناني. أرجو أن تسمحوا لي أيها السادة أعضاء الأكاديمية، وبعيداً من شخصي وإنتاجي، أن أقول لكم، هي عظيمة في حد ذاتها تلك اللفتة التي منحتموني إياها. إذ يجب أن تكون في هذا العالم مناطق تتمتع بكامل استقلاليتها. فليس ثمة شك في أن يجتمع حول هذه المائدة ممثلون لمختلف أطياف الرأي والمعتقدات الدينية والآراء الفلسفية. لكن هناك شيئاً ثابتاً راسخاً يجمع في ما بيننا، ويوحدنا جميعاً، أنها حرية الفكر والضمير، الحرية التي ندين لها بما أنعمت به علينا، بالحضارة. وذلك ما يحتاجه غادر بونين الوطن الأم ولم يكن مضى سوى سنوات معدودات على "ثورته الاشتراكية" التي غيرت كثيراً من ملامح المنطقة والعالم، محملاً بالكثير من مآسيها، وبما ناء به كاهله من أفراح وأتراح راكمها خلال سني حياته الأولى بين ربوع هذا الوطن. لكنه كان رحل بجسده فقط، كما يقال. فقد ظل حتى النهاية روسي الروح والمشاعر، وهو ما أودعه عشرات المؤلفات التي ذاع صيتها وانتشرت لتبلغ مختلف أرجاء الوطن، من منفاه الاختياري في باريس، قبل أن يرحل عن دنياه في تاريخ ذكرى تلك الثورة في عام ١٩٥٣. ولكم كانت سخرية القدر صارخة زاعقة، حين جمعت أيضاً بين تاريخ وفاته، والعام الذي وافت المنية فيه جوزيف ستالين.

الشاعر والأديب

إنه الشاعر والأديب إيفان بونين آخر أدباء جيل العظماء في تاريخ الإمبراطورية الروسية، وأول الفائزين من أبناء جلدته بجائزة «نوبل للآداب» في عام ١٩٣٣. ننقل عنه ما كتبه عن سيرته ومسيرته.

قال بونين، "وعلى الرغم من ارتباطه بالقرية، منذ مولده في فورونيج جنوب غربي روسيا، في ٢٢ أكتوبر ١٨٧٠، كان كثير الترحال، ليس فقط في ربوع روسيا، بل وبعيداً عما وراء حدودها".

تحدث بونين عن نفسه، قال إنه الابن الثالث في سلسلة أخواته، وكانوا تسعة، لم تُكْتَب الحياة سوى لأربعة منهم فقط، نشأوا وترعرعوا في كنف أسرة من النبلاء تعود أصولها إلى القرن الـ ١٥، وإن جار عليها الزمن لاحقاً، لتقصر اهتمامها على توفير التعليم المناسب للطفلين الأول والثاني. كشف عن أن ذلك كان ما دفع الأسرة إلى الرحيل بحثاً عن مسكن مناسب في فورونيج التي بها أبصر النور. وعبر الكثير من المحن والمتاعب تنقل بونين بين ربوع روسيا محملاً بذكريات شغل فيها بوشكين كبير شعراء روسيا وأشهرهم موقع الصدارة، ما كان مقدمة لظهور مواهبه الأدبية، ولم يكن تجاوز الـ ١٥ من العمر. لكنه سرعان ما تلمس طريقه إلى الشهرة اعتباراً من الـ ١٩، ببعض أشعار نشرتها إحدى المجلات الأدبية في مدينة أوريول، لتسجل مولد أحد أهم شعراء العصر.

تواق للشعر والحياة

عرفته الأوساط الاجتماعية والأدبية «تواقاً للشعر والحياة»، متنقلاً بين مختلف المدن الروسية، حتى وصل موسكو وبعدها بيتروغراد، أهم مواطن العلم والثقافة والفنون. تعرف إيفان بونين في موسكو إلى ليف تولستوي وأنطون تشيخوف وماكسيم غوركي وفيدور شاليابين وغيرهم من أبرز مشاهير المنتديات الفكرية والأدبية. ومن موسكو إلى بيتروغراد بما كانت تعج بهم من رموز أدبية، انطلق بونين صوب ما كان يصبو من آفاق، سرعان ما عادت عليه بـ «جائزة بوشكين» عام ١٩٠٣، لتفتح له كثيراً من أبواب الشهرة والمجد.

ولم يمض من الزمن الكثير حتى شد بونين الرحال إلى الكثير من المدن الأوروبية ومنها إيطاليا وتركيا واليونان. بل وجاب جنوب وشرق المتوسط. كثيراً ما نفض بونين عن كاهله حياة الدعة والهدوء. نزع إلى الترحال بحثاً عن عالم أكثر رحابة وجده في رحلاته إلى الشرق، وكانت مصر منها في القلب، حين اختار التوجه منها شرقاً إلى لبنان وفلسطين وبقاعها المقدسة بوصفها مهبط الأديان، أو غرباً إلى تونس والجزائر. ذكرياته في هذه البلدان أودعها روائعه التي اصطبغ الكثير منها بصبغة عربية دينية روحانية، حفلت كتب التراث بما جادت به موهبة إيفان بونين، ومنها ما سجله حول رحلته التي قام بها في ربيع ١٩٠٧ إلى تركيا واليونان ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين، يافا والقدس وحيفا، وبيت لحم مع زوجته فيرا مورومتتسيفا بونينا.

"ظلال طائر»

وكان بونين عاد مرة أخرى في ١٩١٠-١٩١١ ليزور مصر وتونس والجزائر متأثراً بحبه للشرق المسيحي والإسلامي، وبحثاً عن معين لا ينضب لفنه وأشعاره ما انعكس لاحقاً على إنتاجه وابداعاته من القصص والأشعار، ومنها ما سجله في مجموعته التي اختار لها عنوان "ظلال طائر" أو "ظل الطير" بين عامي ١٩٠٧ و١٩١١.

قال "ولدت لأكون شاعراً"، وإن كان له في عالم النثر قسط وافر من الإنتاج يظل يضعه في مصاف كبار أدباء عصره حتى اليوم، بعدما كان خرج من رحم الطبيعة وعالم الكناية والتورية، وعشق الأغاني والأساطير والموروثات، منتفضاً على واقع عصره وما شهده من تحولات اجتماعية ظالمة في معظمها. لم يحظ بونين بالشهرة المستحقة في مستهل حياته الأدبية لأسباب عزاها إلى عدم التصاقه بأي من المدارس الفكرية أو الأدبية في ذلك العصر من جانب، ولعدم استقرار محل إقامته من جانب آخر، وهو الذي كان يهوى السفر والرحلات داخل روسيا وخارجها كما أشرنا سابقاً.

ومن هنا قالوا عنه، "لم يكن بونين في حاجة لأن يعيش في روسيا، ليكتب عنها. لقد كانت روسيا تعيش فيه، بل وكان في مجمله هو روسيا».

ويذكر معاصروه، ما قاله بونين في خطابه الذي ألقاه لدى تسلمه "جائزة نوبل للآداب" في ستوكهولم، تعبيراً عن ذاته، وذات كل من اختار المهجر موطناً، تعتصره مشاعر حب الوطن وحب لغته الروسية، "لقد حملت معي روسيا، حملت الواقع والحقيقة. فنحن لا نستطيع، أينما كنا، ووقتما كنا، إلا أن تسكن روسيا كل كياننا".

قال أيضاً، "إنكم ولأول مرة منذ تأسيس جائزة نوبل، منحتموها إلى طريد. وإلا فمن أكون؟ إنني طريد أتمتع بكرم وفادة فرنسا، التي أظل أحظى بكرم وفادتها، وهو ما أحتفظ لها وإلى الأبد، بشديد امتناني. أرجو أن تسمحوا لي أيها السادة أعضاء الأكاديمية، وبعيداً من شخصي وإنتاجي، أن أقول لكم، هي عظيمة في حد ذاتها تلك اللفتة التي منحتموني إياها. إذ يجب أن تكون في هذا العالم مناطق تتمتع بكامل استقلاليتها. فليس ثمة شك في أن يجتمع حول هذه المائدة ممثلون لمختلف أطياف الرأي والمعتقدات الدينية والآراء الفلسفية. لكن هناك شيئاً ثابتاً راسخاً يجمع في ما بيننا، ويوحدنا جميعاً، أنها حرية الفكر والضمير، الحرية التي ندين لها بما أنعمت به علينا، بالحضارة. وذلك ما يحتاجه

الكاتب على وجه الخصوص. فبالنسبة إليه، هي العقيدة والبديهية».

ومن هنا حمل بونين على ظهره روسيا، في حله وترْحَاله، مستمتعاً بحلاوة الجديد، سامعاً كان أو رائياً. مضى شاعرنا المتمرد في استعراض ذكرياته ليقول إنه غادر موسكو في ٢١ مايو (أيار) ١٩١٨، ليجد الملاذ في جنوب روسيا، الذي سرعان ما وقع فريسة التجاذب، بعدما تحول إلى غنيمة للبلاشفة الحمر تارة، ولخصومهم من البيض تارة أخرى. وذلك ما دفع به إلى أن يلوذ بالفرار في ٢٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٢٠ محملاً بكل ما تزدحم به الذات من مشاعر متضاربة، وما تنوء به النفس من أحمال وهموم.

شد بونين الرحال بداية إلى البلقان، التي أعقبها برحلته إلى فرنسا، حيث استقر به المقام في باريس. لكنه سرعان ما تركها في صيف عام ١٩٢٣ إلى منطقة الألب التي لم يكن يبارحها إلا لماماً خلال أشهر الشتاء. واستطرد ليقول إنه كتب خلال سنوات منفاه الاختياري عشرات الكتب، ربما كانت من أسباب فوزه بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٣، ليغدو أول أديب روسي يفوز بها، وكان الكثيرون يتوقعون أن تذهب الجائزة إلى صديقه ومعاصره ماكسيم غوركي.

"الهروب إلى مصر»

على متن السفينة التي أقلتهم من الإسكندرية إلى يافا، تعرف بونين إلى الموسيقار اليهودي دافيد شور الذي سجل وقائع الرحلة المشتركة بما استغرقته من أيامها الخمسة بين ربوع فلسطين وأماكنها المقدسة ذات الصلة بالعقيدة اليهودية. ومن أبرز روائع تلك الفترة، ما يحمل عناوين "الهروب إلى مصر" عام ١٩١٥، و"الثالوث" عام ١٨٩٣، و"بعث المسيح" عام ١٨٩٦، و"الطريق من الناصرة" و"سفر المزامير" و"القدس" عام ١٩٢٢، و"عرش سليمان" عام ١٩٠٨. ومثلما كتب بونين الكثير من القصائد اليهودية المضمون، نظم شاعرنا كثيراً من القصائد المستوحاة من جوانب العقيدة الإسلامية، ومنها "إبراهيم" عام ١٩٠٣ و"محمد مطارداً" عام ١٩٠٦ و"علامات على الطريق" عام ١٩٠٥، و"المقام" و"الحجر الأسود" و"الحاج" و"الكوثر"، وهي القصائد التي توقفت عندها بالكثير من التفاصيل مكارم الغمري أستاذة الأدب الروسي الأشهر في مصر والعالم العربي، في كتابها "المرجع" الذي نشرته تحت عنوان "مؤثرات إسلامية وعربية في الأدب الروسي". وعنها ننقل ببعض التصرف ما كتبته لدى استعراضها قصيدة "محمد مطارداً"، التي عكست اهتمام بونين بالسيرة الذاتية للرسول، وسجل فيها قصة الهجرة من مكة إلى المدينة في "حراسة الملائكة" وليلة القدر.

وافترش الرمل حافيا مكشوف الصدر
جلس يتمتم حزيناً
«وليت وجه الصحاري المقفرات
معزولاً عن الجمع. عمن يميل إليه الهوى»
قالت الأرواح "الضعف والتعب ليسا من شيم الرسل
ليجيب الرسول في حزن وسكينة: كنت أشكو للحجر».

إبداعات بونين

لم تقتصر إبداعات بونين على القصائد ذات الخلفية الدينية، بل تعدتها إلى حاضر مصر وماضيها، وهو ما عكسته قصائد «القاهرة» التي تناول فيها بونين بعضاً من صفحات الاحتلال البريطاني لمصر وتاريخها الإسلامي والفتح العربي، وأخرى عن الأهرامات وتاريخ مصر الفرعوني، بل وكتب عن النوبة وديار النوبيين بين أحضان الطبيعة على ضفاف النيل.

قال بونين في مذكراته إن الشهرة جاءته في أعقاب نشره لوليدته "قريتي"، التي كانت الفاتحة لأعمال أدبية أخرى حرص من خلالها على الغوص في النفس البشرية الروسية، بما اتسعت له من صفحات مضيئة وغير مضيئة، وإن غلب عليها الطابع المأساوي. وتطرق بونين إلى ما شاع بين ممثلي الانتليجنسيا الروسية وأوساط النقاد حول ما يمكن وصفه بـ "تأليه" الشعب وإضفاء "القدسية" على الكثير من سماته وخصائله، "في وقت كنت أحرص على "جلد الذات" بسلبياته وبأوصاف غير طيبة، شديدة القسوة. وكنت آنذاك أشعر بتوطد أقدامي ورسوخ مواقعي في عالم الأدب، حتى اندلعت نيران الحرب (الحرب العالمية الأولى ١٩١٤)، والتي سرعان ما أعقبتها الثورة (ثورة أكتوبر الاشتراكية ١٩١٧) وأحداثها. ولم أكن ضمن من داهمتهم، أو نزلت عليهم نزول الصاعقة، بما اتسمت به من قسوة وهمجية. لم يكن ذلك مفاجأة بالنسبة إلي. لكن ما جرى فاق في حقيقته وأبعاده كل التوقعات. فليس ثمة من توقع أو أدرك أبعاد ما جنحت إليه الثورة الروسية من تورط في ارتكاب المآسي والكوارث، ورعب تعدى كل الحدود وتجاوز كل توقعات من بقيت لديه أبسط مشاعر الإنسانية. فما إن استولى لينين على السلطة حتى انطلقت مئات الألوف لا تلوي على شيء، بحثاً عن ملاذ تأوي إليه، وملجأ يقيها شرور العصر».

لكن القدر كان يخبئ له ما فاق تلك الشرور التي تصورها فوق طاقة البشر. كانت في انتظاره شرور النازية والفاشية. في ليندا و بألمانيا التي وصلها عام ١٩٣٦

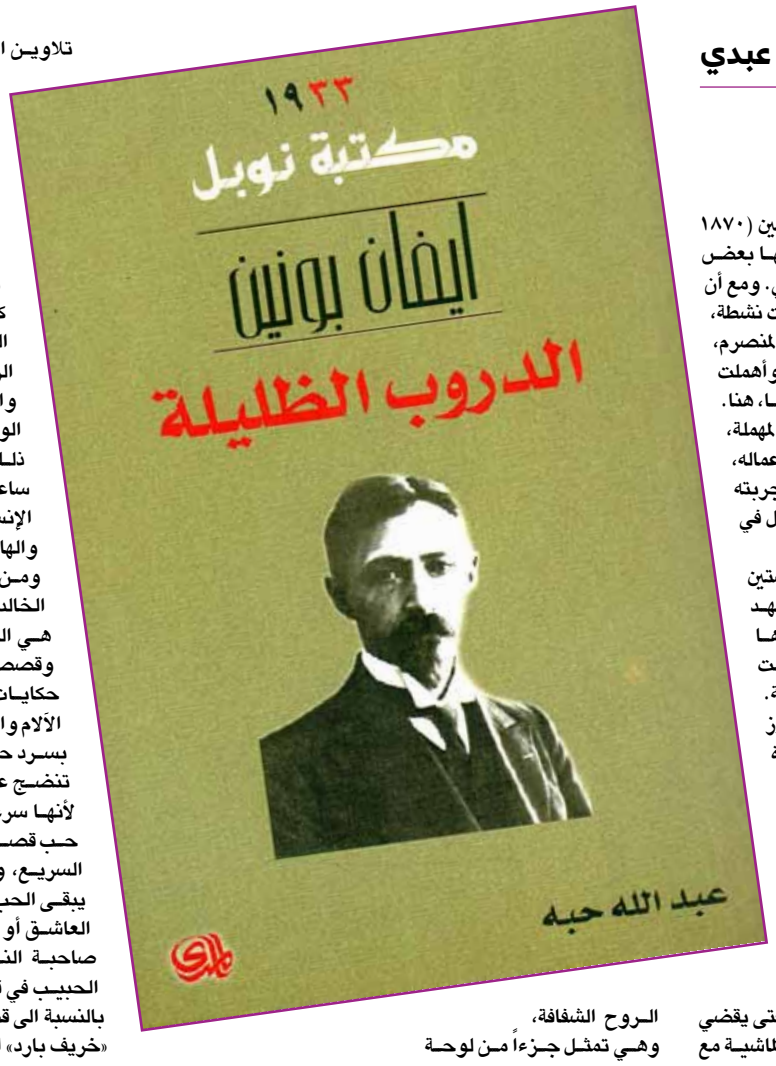

جرى اعتقاله وعانى من الإهانة ما عانى. قضى سنوات الحرب متأثرا ببعض ويلاتها، وإن خرج منها بوفير إبداعاته التي لم تجد آنذاك طريقها إلى النشر. عبر آلامها، وتغاضى عما أصابه من مآسٍ. تذكر الوطن وما تركه بين الأهل والأحباب.

وعلى الرغم مما كان له من باع طويلة، وإرث غزير في عالم القصة والرواية، بما يظل يضعه في موقع متميز بين أقرانه من أدباء ذلك الزمان، كان بونين دائم القول "ولدت لأكون شاعراً».

قالها عن حق "متكئاً" إلى مخزونه الفكري والأدبي، وما اختزنته الذاكرة من أساطير وموروثات، فضلاً عما عايشه من هموم ذلك العصر، وما وقر في ذاكرته من انطباعات وذكريات.

لم يكن بونين كما ذكرنا من دعاة الاستقرار أو محبيه. كان يهوى التنقل، بحثاً عن الجديد، متمرداً على المألوف. وذلك يفسر العديد من خياراته ومنها خياره للشرق وموروثاته هدفاً وسبيلاً إلى ذلك الجديد الذي يريد. استهل بونين رحلاته وأسفاره بمصر التي وجد في تاريخها معيناً لا ينضب، ثمة من يقول إنه كان له السند الأكبر في ما سجله من رؤى وانطباعات أودعها "قصائد القاهرة". في هذه المجموعات الشعرية استعرض بونين ماضي مصر وحاضرها منذ التاريخ الفرعوني وحتى سنوات الاحتلال البريطاني، مروراً بسنوات الفتح العربي الإسلامي. ولم تكن النوبة بديارها وتراثها وموروثاتها على ضفاف النيل بعيدة عن دائرة الرؤية، وعما خرج به بونين إلى العالم من انطباعات وأشعار لا تزال تتردد أصداؤها حتى اليوم.

بلدان شرق المتوسط

ومن القاهرة، نزل بونين وقرينته فيرا مورومنتسيفا بونينا (اللقب ثنائي يجمع بين لقبي الزوجين) إلى الإسكندرية، ليستقلا منها السفينة التي حملتهما إلى بلدان شرق المتوسط في فلسطين، ببقاعها المقدسة، وسوريا ولبنان ومنهما إلى تركيا واليونان، قبل أن يعود ثانية ليقصد غرب المتوسط في تونس والجزائر. وذلك كله ما أودعه مجموعته الشعرية التي اختار لها عنوان «ظلال طائر» عن الفترة من ١٩٠٧-١٩١١.

وإذا كان ثمة من يري بعض التناقض في ما كان يكنه بونين من عشق وولـه بالشرق وحضاراته، وما قال بونين إنه كان يحلم بأن يولد في وقت مبكر عن ذلك الذي ولد فيه، حتى لا يرى ويعايش في روسيا ما عاشته في مطلع القرن الـ ٢٠ من مآسٍ وكوارث، فإن هناك ما يمكن الاستشهاد به من سيرته ومسيرته، دحضاً لمثل هذا الخطأ.

وكان بونين قد أوضح بنفسه عدم صحة هذا الخلط والخطأ، في مذكراته التي كتبها في باريس عام ١٩٥٠ حول هذا الصدد.

ولدت متأخراً كثيراً

قال بونين، لقد ولدت متأخراً كثيراً. فلو كنت ولدت في وقت مبكر عن ذلك التاريخ الذي ولدت فيه، ما كنت حملت معي مثل ما حملت من انطباعات. ولم أكن لأعيش ويلات عام ١٩٠٥ (الحرب الروسية- اليابانية التي هزمت فيها اليابان الإمبراطورية الروسية، واحتلت بعض أراضيها، ومنها جزر كوريل التي استعادها الاتحاد السوفياتي مع نهاية الحرب العالمية الثانية، لتصبح موضع نزاع بين البلدين منذ ذلك الحين)، التي أعقبها عام ١٩١٧ (تاريخ اندلاع ثورة أكتوبر الاشتراكية (البلشفية) وما نجم عنها من ظهور لينين وستالين وهتلر. ولكيف لنا ألاَّ نحسد جدنا نوح الذي قيض له أن يكون من نصيبه فيضان واحد.

أما عن مشاعره الحقيقية تجاه روسيا الوطن، وروسيا اللغة، فقال بونين، "لقد أخذنا روسيا معنا، أخذنا طبيعتنا الروسية، وأينما كنا فإننا لم يكن يسعنا إلاَّ أن نشعر بها».

وفي هذا الشأن أيضاً مضى أندريه سيديخ سكرتيره الشخصي إلى ما هو أبعد، حين قال ما أشرنا إليه، "لم يكن بونين في حاجة لأن يعيش في روسيا، ليكتب عنها. لقد كانت روسيا تعيش فيه، بل وكان في مجمله هو روسيا».

وفي ذلك كله إيجاز، قد يكون القول الفصل لما يمكن أن يعنيه "إيفان بونين"، الشاعر والاديب، وعاشق الشرق وحضاراته، بكل إنجازاته وروائعه التي صاغ معظمها خارج حدود الوطن.

عن اندبندنت عربية

«الدروب الظليلة» لإيفان بونين ... الحب وخيباته

إبراهيم حاج عبدي

لم يحظَ الروائي والشاعر الروسي إيفان بونين (١٨٧٠ – ١٩٥٣) بالشهرة الواسعة التي حظي بها بعض أقرانه من الكتاب الروس في العالم العربي. ومع أن حركة الترجمة من الروسية إلى العربية بدت نشطة، وخصوصاً في النصف الثاني من القرن المنصرم، غير أن هذه الحركة ركزت على أسماء معينة وأهملت أسماء أخرى لأسباب يصعب الخوض فيها، هنا. وقد يكون بونين واحداً من هذه الأسماء المهملة، فعلى رغم الترجمات القليلة التي صدرت لأعماله، هنا وهناك، بيد أنها لم ترتق إلى مستوى تجربته ومكانته كأول أديب روسي يفوز بجائزة نوبل في الآداب عام ١٩٣٣.

امتدت تجربة بونين الإبداعية أكثر من ستين سنة، وهو عاصر حربين عالميتين، وشهد تحولات عاصفة، وثورات في بلاده أبرزها ثورة تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٧. وكانت حياته حافلة بالانعطافات، والأحداث المأسوية. عرف بونين المرض، وخبر سنوات العوز والحرمان الطويلة على رغم انه سليل أسرة من النبلاء فقدت ممتلكاتها، إذ قررت الأسرة ترك مدينة فورونيج عام ١٨٧٤ والإقامة في قرية بوتيركي في محافظة اوريول حيث كانت توجد آخر ضيعة للأسرة. ترك هذا الانتقال أثراً عميقاً في ذاكرة الطفل بونين، ووسم مجمل كتاباته، فقد أمضى بونين طفولته في هذه القرية الخربة، واستمع إلى حكايات الفلاحين وأغانيهم، وتشبع بحب الريف وتقدير الفلاح الروسي. وكان الفتى يقضي طوال يومه في القرى المجاورة ويرعى الماشية مع الصبيان من أبناء الفلاحين وربطته أواصر الصداقة مع بعضهم. وظل حتى نهاية حياته شديد الارتباط بهذه الفضاءات الريفية البسيطة والقاسية؛ منجذباً إلى نمط حياة القرية الروسية. وكتب لاحقاً عن هذه الفترة من حياته يقول: «إن ذكريات الطفولة ارتبطت، منذ كنت في سن السابعة، بالحقول وبيوت الفلاحين (الموجيك) وساكنيها».

وفي هذه السنوات الباكرة تفتحت موهبة بونين والتي تجسدت في القدرة على تصوير الناس عبر الإيماءات والحركات، إذ كان راوياً موهوباً منذ ذلك الوقت، ففي سن الثامنة نظم أول قصيدة. ولدى بلوغه الحادية عشرة التحق بالمدرسة في مدينة يليتس. لكنه سرعان ما سئم التعليم والمقررات المملّة، فراح يثقف نفسه بنفسه، ويختار قراءة الكتب التي يميل إليها، مواصلاً قرض الشعر ومقلداً بوشكين وميخائيل ليرمونتوف وغيرهما من شعراء روسيا. وفي خريف عام ١٨٨٩ بدأ العمل في صحيفة وراح ينشر فيها قصصه وأشعاره ومقالاته في النقد الأدبي، وكان يكسب رزقه من الكتابة الأدبية، بعد إفلاس أسرته عام ١٨٩٣.

نال الشهرة في شبابه بعد نشر قصصه: «في الدسكرة»، «في القرية»، «تفاحات انطونوفكا»، وروايتيه القصيرتين: «القرية»، و&#۸۲۰۱;«الوادي القاحل»، ومقالات مثل «ظل الطائر» المستوحاة من رحلاته إلى الشرق الأوسط. وأصدر مجموعات شعرية، إلى جانب الكتابة النثرية، وهو لم يكن يأبه لهذا الفرز بين الشعر والنثر، فجوهر المسألة ينحصر في الطبيعة الشعرية لموهبته، وفي الغنائية التي تسربت إلى لغته.

تميز بونين بإحساس مرهف ورقيق حيال الحياة، وكان يكنّ حباً جارفاً للطبيعة وإيقاعها المنسجم المتناغم، وتعد أعماله المذكورة آنفاً وسواها مثل: «كأس الحياة»، «الأشقاء»، «سيد من سان فرانسيسكو»، «أحلام تشانغ»، «قواعد الحب»، و&#۸۲۰۱;«الابن» انعكاساً لتلك الروح الشفافة، وهي تمثل جزءاً من لوحة النثر الروسي البديع، والرحب. حين اندلعت الحرب العالمية الأولى، ومن ثم قيام ثورة أكتوبر، اتخذ بونين قراراً بمغادرة روسيا، ووصل عام ١٩٢٠ إلى باريس ليمضي بقية حياته في هذا المنفى الاختياري.

إن خيرة ما أبدعه بونين في المهجر هو الروايات القصيرة والقصص التي تتضمن فكرة الحب الخالد، والحنين إلى الوطن، والتغني بمباهج الحياة ونبذ كل ما هو مشوّه وعليل... ومن هذه الأعمال: «وردة أريحا»، و&#۸۲۰۱;«الحاصدون»، و&#۸۲۰۱;«غرام ميتيا»، و&#۸۲۰۱;«ضربة شمس»، ورواية «حياة ارسينييف» التي قادته إلى نوبل. وعمل بونين خلال الفترة الممتدة من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٦ في تأليف القصص التي تشكل قوام كتابه «الدروب الظليلة» التي صدرت طبعة جديدة منها عن دار المدى في دمشق بترجمة عبدالله حبه.

كانت هذه السنوات عسيرة وشاقة على بونين، إذ تدهورت صحته، ولازمته وحدة خانقة، وكان العمل في كتابه هذا يمثل مصدراً وحيداً للبهجة. وهو استمد العنوان من مقطع للشاعر نيكولاي اوغاريوف (١٨١٣ – ١٨٧٧) يقول: «ثمة دروب ظليلة من الزيزفون». والواقع أن هذا العنوان الذي يحيلنا إلى رقة الطبيعة وشفافيتها، يعبّر، في الآن ذاته، عن فحوى هذه القصص وعوالمها الرومانسية الحزينة، والتي تجسد مقولة كان سمعها بونين من تولستوي تفيد بأن «الحب لا يعرف الموت، الحب هو الحياة». اهتداء بهذه المقولة، يخصص بونين هذا الكتاب للحديث عن الحب وأحواله وخيباته ومآزقه ورهافته، حتى أطلق بعض النقاد على الكتاب وصف «موسوعة الحب». وعلى رغم اختلاف وقائع القصص وأحداثها، لكن موضوعة الحب هي التي تجمع بينها، إذ ينهمك بونين، هنا، في سرد شتى لحظات العشق التي تنشأ بين الرجل والمرأة ويصف لواعج العشق، والتوق إلى الوصال، والمكابدات التي يعانيها العاشق. إنه يصغي ويحدس ويمعن النظر ويحاول تخيل كل تلاوين العلاقات بين العشاق: المعاناة السامية الشاعرية في قصة «روسا»، والمشاعر المتناقضة والقاسية والمفاجئة في قصة «موزا»، والأهواء والعواطف البدائية الجياشة في قصتي «كوما»، و&#۸۲۰۱;«البداية». إنه كتاب شاعري يسجل أسرار الهوى، ويروي المشاعر الرقيقة، والأحلام الضائعة، والحنين والهجران، والرغبة في الوصال، وعذابات الفراق... كل ذلك يتأمله بونين ويغوص فيه ساعياً إلى استكناه ألغاز طبيعة الإنسان والانفعالات العنيفة والهادئة التي تمور في داخله.

ومن المعروف أن قصص الحب الخالدة في تراث الشعوب وثقافاتها هي التي انتهت نهايات مأسوية، وقصص بونين، كذلك، لا تهتم بسرد حكايات الزواج السعيد الخالية من الآلام والانفعالات والقلق، بل تهتم بسرد حكايات الحب الخاطفة التي تنضج على نار السعادة المتوهمة، لأنها سرعان ما تخبو. إنها قصص حب قصيرة العمر، محكومة بالزوال السريع، ولكن هذا الزوال ماكر، إذ يبقى الحب يضيء كل ذاكرة وحياة هذا العاشق أو ذاك. هكذا احتفظت ناديجدا، صاحبة النزل، طوال حياتها بذكرى الحبيب في قصة «ستيوبا»، وكذلك الحال بالنسبة الى قصة «روسا». بل ان بطلة قصة «خريف بارد» التي ودّعها حبيبها إلى الحرب ولم يعد، لا تحتفظ في قلبها ووجدانها، على رغم مرور ثلاثين سنة، إلا بذكرى أمسية خريفية باردة جمعتها مع حبيبها. وفقاً لهذه النهايات التراجيدية، فإن الفكرة الأساسية لدى بونين تتمثل في أن الارتباط الأبدي يعني بالنسبة إلى أبطال قصصه، القضاء على الحب نفسه، وتحويل المشاعر المتأججة إلى سلوك عادي؛ رتيب. ولئن كان أبطاله يتوقون إلى نهايات بهيجة، كما هو دأب المحبين، لكن ثمة دائماً نذر كارثة مباغتة تلوح في الأفق، إذ تنتهي القصص بالموت أو الفراق أو الغياب لتبقى ومضة الحب متلألئة بين شغاف القلوب المحطمة.

يصوغ بونين هذه الحكايات وفق أسلوب واضح مفعم بنبرة وجدانية، وحتى حين يتحدث عن الغرائز والرغبات الحسية، فإنه ينأى بسرده عن الابتذال، وهو ما دفع بالنقاد إلى اعتباره من الأدباء الروس القلائل الذين كتبوا على هذا النحو الجريء والوقور في آن. إنه يعمد مثل الرسام والنحات إلى رسم ونحت الجمال المتجسد في المرأة بكل حسن وانسجام الأشكال والخطوط والألوان كما نجد في قصتي «كامارغ»، و&#۸۲۰۱;«مئة روبية» اللتين تنعدم فيهما الأحداث، لكنهما تزخران بصورة المرأة بكل جمالها الأصيل والفطري والمتوحش. والواقع أن النساء تضطلع بدور رئيس في هذه القصص تجسيداً لمقولة غوستاف فلوبير التي آمن بها بونين: «تبدو لي النساء كسرّ غامض، كلما أوغل في دراستهن يقل إدراكي لهن». وتدور قصصه حول المرأة الروسية بالدرجة الأولى، وتصف خصالها وخصوصيتها، ومسرح الأحداث هي روسيا غالباً، وحتى إذا جرت الأحداث خارجها كما في قصتي «باريس»، و&#۸۲۰۱;«ثأر»، فإن الوطن يبقى ماثلاً أمام أعين الأبطال، وفي قلوبهم، وهذا ما عبّر عنه بونين: «حملنا معنا روسيا، وفطرتنا الروسية، وأينما حللنا لا نملك سوى أن نشعر بها".

من ارشيف صحيفة المدى ٢٠١١

بونين بالعربية .. اكتشاف متأخر لكاتب رائع

د. جودت هوشيار

تقوم كبريات الصحف والمجلات الغربية (تايم، نيويورك تايمز، الأندبيندنت، لو فيغارو، لوموند وغيرها) بين حين وآخر، بأعداد لائحة بأهم مائة كتاب أثرت في المسيرة الحضارية للأنسان أو أعظم مائة رواية عالمية، وما شابه ذلك من لوائح الكتب . ولو حاول أي باحث عربي، أن يقلد هذا العرف الثقافي الجميل،ويعد قائمة بأهم مائة رواية عالمية، لعجز عن ذلك حتماً، لأن ما ترجم الى اللغة العربية من هذه الروايات لا يتجاوز ١٠٪ في أحسن الأحوال . فعلى سبيل المثال، نرى ان ما يترجم الى اللغة الأسبانية من الكتب الأجنبية، يتجاوز كثيراً ما يترجم الى اللغة العربية في (٢٢) دولة عربية مجتمعة، وذلك لسبب رئيسي وهو العزوف عن القراءة في العالم العربي . حيث لا يزيد ما يوزع من أفضل رواية عربية موضوعة أو مترجمة عن عدة آلاف نسخة . ولم يترجم شيء من نتاجات بونين الى اللغة العربية حتى السبعينات من القرن الفائت، حين قمنا بترجمة عدة قصص لهذا المبدع الكبير، سنأتي على ذكرها في الفقرات اللاحقة .

تعرّف القاريء العربي على أعمال الأدباء الكلاسيكيين الروس (بوشكين، ليرمنتوف، غوغول، تولستوي، دوستويفسكي، تشيخوف) منذ أواخر القرن التاسع عشر وخلال الحرب العالمية الثانية نشطت حركة ترجمة أعمال الكتاب والشعراء السوفييت المشهورين (غوركي، شولوخوف، اوستروفسكي، اهرنبورغ، مایاكوفسكي وغيرهم.) وكانت دور النشر اليسارية هي التي تتولى مهمة ترجمة هذه الأعمال من اللغتين الفرنسية والأنجليزية لندرة العارفين باللغة الروسية في ذلك الحين . لذا غاب أسماء الكثيرين من أبرز الأدباء والشعراء الروس المغضوب عليهم في الأتحاد السوفييتي (بونين، باسترناك، زامياتين، بابل، يسينين، ماندلشتام، وتسفيتايفا وغيرهم) .

في فترة ذوبان الجليد أي عهد خروشوف، سمح القسم الأيديولوجي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي – المشرف على الحركة الثقافية والفكرية في روسيا وعموم الجمهوريات السوفيتية – بنشر مختارات من نتاجات الأدباء غير الحزبيين ولكن بعد غربلة نتاجاتهم وحذف ما لا يعجب الرقابة الحزبية الصارمة وانتقاء ما لا يتعارض مع سياسة الدولة في المجال الثقافي، وغالبا ما كانت هذه النتاجات تسبقها مقدمات ضافية تحاول تبرير حجبها عن القاريء حتى ذلك الوقت .

وبعد عودة الخريجين العرب في جامعات الأتحاد السوفييتي، في منتصف الستينات، ظهرت الى الوجود نتاجات أدبية روسية من روايات وقصص وقصائد ودراسات نقدية مترجمة من اللغة الروسية . وكانت في معظمها نتاجات نشرت في الأتحاد السوفييتي بموافقة القسم الأيديولوجي ولم نجد مترجماً عربيا قام بترجمة ما ظهر الى الوجود في الأتحاد السوفييتي خلال فترة ذوبان الجليد من نتاجات الكتاب والشعراء المغضوب عليهم، هذه النتاجات التي كانت حديث الأوساط الثقافية في روسيا. ولكن لم يتطرق أي منهم الى تلك الأسماء حتى اليوم رغم أن أواخر عهد (البريسترويكا) أي نهاية الثمانينات من القرن الفائت، شهدت نشر الأعمال الأدبية الكاملة للكتاب والشعراء الذين أعدمهم ستالين بتهم ملفقة أو قضوا أفضل سنوات عمرهم في منافي سيبيريا أو الذين هاجروا الى الدول الغربية وفي مقدمتهم أيفان بونين .

وقد ظهرت في السنوات الأخيرة بعض الدراسات العربية عن أدب بونين تستند أساساً على أعمال النقاد السوفييت . رغم أن هؤلاء النقاد طواهم النسيان، الأموات منهم والأحياء، ولم يعد حتى الباحثون الروس والأجانب في تأريخ الأدب الروسي يعيرون أي اهتمام لكتاباتهم المؤدلجة، فقد كانوا أبواقاً للحزب الشيوعي، ينهشون لحم كل من لا يخضع لأوامر الحزب القائد .ومن المؤسف حقاً أن معظم هؤلاء الخريجين لم يقرأوا في حياتهم سوى نتاجات الكتاب الذين حظوا بمباركة السلطة السوفيتية، رغم أن نتاجات كل الكتاب والشعراء الروس تنشر اليوم في روسيا على الملأ بكل حرية،و الباحث الحقيقي في أي مجال كان، يفترض به أن يتابع كل ما هو جديد في تخصصه و لا يحبس نفسه في قفص الماضي الكئيب . .

أيفان بونين (١٨٧٠-١٩٥٣) أحد الاعلام البارزين في الادب الروسي الكلاسيكي، وقد بدأ حياته الادبية شاعرا وكان لم يتجاوز العشرين حتى نشرت مجموعة أشعاره الاولى ، التي نال من أجلها (جائزة بوشكين) تم منح الجائزة ذاتها مرة ثانية حين ترجم من الشاعر الامريكي (لونفيلو) قصته الشعرية (هياواثا)) .

بيد أن بونين معروف في المقام الاول ككاتب نثر ممتاز ورائد جيل من كتاب القصة القصيرة في روسيا في النصف الاول من هذا القرن ويعد أهم كاتب للقصة القصيرة بعد تشيخوف . ويتميز أسلوبه بالثراء اللغوي والعمق السيكولوجي .بونين شان تشيخوف يأسر القارىء في قصصه بوسيلة أكثر من أي متعة أخرى ، أن قصصه مواقف آسرة وشخوص فريدة ، فهو يجذب أنتباهنا فجأة لما هو عادي تماما ومألوف عندنا في خبرتنا اليومية والحياتية، ولما مررنا به في الماضي مرات عدة دون أن تصيبنا الدهشة لولا ذاكرته الفنية .

في عام ١٩٠٩.عندما كان في التاسعة والعشرين من العمر – منحته اكاديمية العلوم الامبراطورية الروسية لقب اكاديمي تقديرا لابداعه الادبي، وهو شرف لا يحظى به، الا القلة من العلماء والمبدعين.

رشح بونين لنيل جائزة نوبل للمرة الأولى عام ١٩٢٣، ومن ثم في عام ١٩٢٦، وبعدهما في عام ١٩٣٠، وفاز بها عام ١٩٣٣، عقب صدور روايته «حياة ارسينيف» وكان أول كاتب روسي يحصل على هذه الجائزة. ومما قيل في حفل تسليم الجائزة ما يلي: «بقرار من الاكاديمة السويدية تمنح الجائزة لايفان بونين على الموهبة الفنية الحقة التي تمكن بواسطتها من اعادة خلق الشخصية الروسية بقالب نثري جميل .

هذه الميزات لعالم بونين الفني يقربه من تولستوي، كما يقربه من تشيخوف،الأقتضاب الشديد في السرد القصصي والثراء في تصوير التفاصيل المعبرة وقدرة الفنان على التقاط دراماتيكية الحياة اليومية وتدفقها .

قبل بونين كان وصف الطبيعة في الأعمال الروائية والقصصية – اعمال تورغنيف مثلا – مجرد ديكور لما يحدث في القصة، أما الطبيعة في قصص بونين فأنه الحضن الذي تنشأ فيه المشاعر الروحية والأنسانية العميقة وتبقى محفورة في القلوب الى نهاية العمر .

عندما نقرأ لبونين فكأننا نشم رائحة العسل ونستنشق نضارة الخريف ورائحة العشب ورائحة الكتب المجيدة – على حد وصفه – وحتى رائحة العصور القديمة .

يمتاز الحوار في قصصه بالدقة والتحديد في نقل اقوال ابطاله فأذا كان يصور الفلاح الروسي فهو يعرف اسلوب التعبير وملامح وخصال وعادات ليس الفلاح عموما وانما فلاح من منطقة معينة في روسيا . كل ذلك ضروري للكاتب لألتقاط ما هو مهم وأساسي في نفسية الأنسان وحياته وما هو أزلي .

. في أوائل القرن العشرين قال أنطون تشيخوف – الذي لم يكن يميل الى تقييم الأدباء المعاصرين له أو كيل المديح لأحدهم جزافاً – إن بونين كاتب فذ، لا نظير له . وكل من يكتشف بونين لنفسه، إنما يخطو خطوة نحو النضوج .” وقال مكسيم غوركي: ” الأدب الروسي يبدو شاحباً لو خلا من بونين .»

في منتصف عام ١٩٧٣ صدر عن وزارة الثقافة العراقية كتابي المعنون ” دراسات معاصرة “،وتضمن الكتاب عدة دراسات مترجمة عن اللغة الروسية فيها إشارات الى نتاجات آخر عمالقة الأدب الروسي الكلاسيكي ايفان بونين . وبعد أيام قليلة من صدور الكتاب كتب الناقد الراحل د. علي جواد الطاهر، استعراضاً نقدياً عنه في جريدة (الجمهورية) البغدادية – واعاد نشره في ما بعد في كتابه ” وراء الأفق الأدبي الصادر في عام ١٩٧٧.

يقول الطاهر. أنه لم يحس بأنه يقرأ نصوصاً مترجمة، بل نصوصا كتبت باللغة العربية وأنني معجب بعالم ايفان بونين القصصي، وأشيد به كثيراً في ملاحظاتي وتعليقاتي على هوامش الكتاب، وانهي مقاله القيم بمطالبتي بترجمة نماذج من قصص بونين، ليتم الأطلاع عليها كشواهد على ما أقول . هذه المطالبة وضعتني في موقف لا يحسد عليه، ذلك لأن نرجمة بونين ليس بالأمر الهين، لعدة أسباب، منها ان لغة بونين تفقد كثيراً من رونقها وجمالها وبلاغتها بكل ما فيها من ظلال المعاني والصور عند ترجمتها، كما أن الأندماج النفسي والتفاعل الخصب بين ابطال قصص بونين وبين الطبيعة الروسية الساحرة كامنة وراء الكلمات وبين الأسطر، ناهيك عن صنوف التشبيه والمجاز والأستعارة التي لا نظير لها في اية لغة أخرى، كل هذا يجعل من ترجمة نتاجات بونين مهمة شاقة. ورغم ذلك فقد حفزني مقال الطاهر على ترجمة عدة قصص لبونين منها ” ضربة شمس ” التي تصف بجمال وروعة تأثير لحظة غرام بين امرأة فاتنة مجهولة الاسم وضابط يمر باحدى المدن، وتترك لحظة الغرام هذه جرحا لا يندمل فيه رغم تقدمه في العمر. وأزعم أن هذه القصة أول نتاج لبونين مترجمة من اللغة الروسية مباشرة، وليس عن طريق لغة اخرى..

نشرت القصة على ثلاث حلقات في صحيفة ” المثقف الجديد ” التي كانت تصدر عن ” دار الثقافة والنشر الكردية ” في بغداد . ولا ادري إن كان الناقد الراحل قد اطلع على هذه الترجمة .لأنه لم يشر في مقاله الى أنه قد إطلع على نماذج من قصص بونين . ثم ترجمت قصة بونين الشهيرة ” الدروب الظليلة ” ونشرت في مجلة ” شمس كردستان ” في عام ١٩٧٦ وهي عنوان أشهر مجموعة قصصية للكاتب نشرت في نيويرك عام ١٩٤٣ . قامت دار (رادوغا) السوفيتية الرسمية بنشر مجموعة ” الدروب الظليلة “، التي تضم أربعاً وثلاثين قصة قصيرة وطويلة في عام ١٩٨٧ بترجمة عبدالله حبه، وأعادت دار ” المدى ” نشرهذه الترجمة حرفياً عام ٢٠٠٤ ضمن سلسلة ” مكتبة نوبل ” رغم أن هذه المجموعة لا علاقة لها بجائزة نوبل التي نالها بونين في عام ١٩٣٣عن روايته (حياة أرسينيف) حصراً والمنشورة عام ١٩٣٠، أما مجموعة ” الدروب الظليلة ” فقد صدرت عام ١٩٤٤ . والغريب في الأمر أن دار ” المدى ” أشارت الى أنها تحتفظ بحقوق النشر، ولا أدري من منحها هذا الحق، هل ورثة المؤلف أم دار ” رادوغا ” التي لم يعد لها وجود بعد انهيار الأتحاد السوفييتي . ؟ والأغرب من ذلك ان المقدمة التي كتبتها الناقدة ” آنا ساكيانتس ” زاخرة بالمغالطات على نهج النقد السوفييتي الذي كان يلوي عنق الحقيقة انسجاماً مع النهج الرسمي للحزب في النيل من المبدعين الحقيقيين .

ولحسن الحظ فأن الجيل الجديد من خريجي التخصصات الأدبية في الجامعات الروسية متحررون من الجمود العقائدي ويبدو أنهم مطلعون على الأدب الروسي الحقيقي جيدا وليس الأدب الأيديولوجي السوفييتي، فقد قرأت في الآونة الأخيرة عدة مجاميع قصصية لبونين مترجمة الى العربية من الأصل الروسي وهي :

١ – مجموعة ” غرام ميتيا ” وتضم اضافة لهذه القصة الطويلة ثلاث قصص أخرى منها ” ضربة شمس ” و ” ناتالي ” و” سيد من فرانسيسكو” بترجمة شوكت يوسف وصدرت ضمن سلسلة (ابداعات عالمية ” عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت عام ٢٠٠٣

٢- مجموعة قصص مختارة لبونين صدرت عن وزارة الثقافة السورية عام ٢٠١٢ بترجمة محمود عبد الواحد .

ان هذه الترجمات ليست سوى بداية متواضعة أرجو أن تعقبها اصدارات أخرى، خاصة ان هذه المجاميع الثلاث حظيت بمقروئية جيدة في العالم العربي .

الدروب الظليلة .. الحب الذي حرّك الساكن وغاير النهايات التقليدية

هدية حسين

إنها الدروب الظليلة، تلك التي عادت بعد ثلاثين عاماً الى ذاكرة العاشقين، نيكولاي أليكسييفيتش، وناديجدا، وحدها المصادفة قادت العاشق القديم الى النزل الذي تديره محبوبته القديمة، لكننا قبل الدخول الى عوالم تلك القصة التي تحمل عنوان(الدروب الظليلة) سنلقي بعض الضوء على عالم هذا الكاتب الروسي الكبير

ونلخص ما جاء في المقدمة التي نقلها لنا المترجم عبد الله حبه عن آنا سآكيانتس لكتاب (الدروب الظليلة)

ولد إيفان بونين في العام ١٨٧٠ وتوفي في العام ١٩٥٣، وتواصل إبداعه فترة تربو على الستين عاماً، عاصر حربين عالميتين وثلاث ثورات روسية، عرف المرض وسنوات العوز، وظل وفياً لذاته ولموهبته، وهو سليل أسرة من النبلاء أحاق بها الضرر، فأمضى طفولته في ضيعة شبه خربة، مرتبطاً أشد الارتباط بالريف، لهذا ظل حتى نهاية حياته شديد الاهتمام بالفلاح الروسي، وكان يتمتع بحب فطري لكل ما هو أرضي، وبالقدرة على تحسس الطبيعة، ومن الخصال المميزة لشخصية بونين وموهبته الأدبية الإحساس المرهف والرقيق بالحياة.

في العام ١٩٢٠ هاجر الى فرنسا وأمضى حياته فيها، وعاش معاناة الوحدة الإبداعية والإنسانية والحنين المبرح الى الوطن.. حصل على جائزة نوبل في العام ١٩٣٣ عن روايته (حياة أرسينييف).. يُعد كتاب (الدروب الظليلة) الذي صدر عن دار المدى بطبعتين من أهم كتبه القصصية، وكان مصدر البهجة الرئيسية في حياة بونين..ومن هذا الكتاب الذي وصفه المترجم بأنه موسوعة الحب، اخترت قصة (الدروب الظليلة) التي أخذ عنها عنوان مجموعة إيفان بونين.

تحكي قصة الدروب الظليلة عن علاقة حب ما كان لها أن تستمر، افترق العاشقان ولم يلتقيا إلا بعد ثلاثين عاماً، محض مصادفة جاءت متأخرة كل هذه السنين، لم يتعرف العاشق نيكولاي على محبوبته ناديجدا، هي التي عرفته ونادت عليه باسمه، فلما علم أنها المرأة التي أحبها يوماً، ارتبك، ودار بينهما حوار قصير ليقول بعده:

– كل شيء زائل يا صديقتي، الغرام، الشباب، كل شيء، إنها قصة عادية وكل شيء يمضي مع السنين.

فترد عليه:

– الشباب يمضي لدى الجميع، أما الحب فأمره مختلف.

ولعل ما قالته له يلخص فلسفة الحياة والحب، الشبابٍ يمضي، لابد أن يمضي بفعل قانون الكائنات جميعاً، لكن ما يبقى هو جوهر الروح المتمثل بالحب، فالعاطفة الصادقة لا تموت، إنها الحقيقة التي تبقى شاهدة وحية مهما مرت السنين وتغيرت الأحوال.

استمر الحوار بينهما عن تلك الأيام، هي تذكّره بشيء، وهو يذكّرها بشيء، حتى قال لها: آه، كل شيء يمضي، وكل شيء يُنسى.

فقالت: كل شيٍء يمضي، لكن لا يُنسى كل شيءٍ.

المرأة تحديداً لا تنسى الرجل الذي أحبته يوماً، ذاكرتها تبقى مضيئة بتلك التجربة التي اجتاحتها في بواكير عمرها، يبقى طعم كلٍ شيء تحت جلدها، بحلوه ومرّه، حتى وإن التقت رجالا آخرين، قد تحبهم، لكن ليس بقدر ذالك الحب الذي بدأ بالخفقة الأولى والارتعاشة الأولىٍ، وتركها فريسة للأحلام والمباهح، والانكسارات أيضاً..

نعم الحب أمره مختلف، وناديجدا محقة في ذلك.

نعود الى قصة الدروب الظليلة، التي مضى على كتابتها عشرات السنين، وعلى الرغم من ذلك بقيت حية ومتوهجة مثل ذلك الحب الذي صاغه لنا إيفان بونين، ليس فقط بما تحمله من دفق إنساني وعاطفة نبيلة، بل بتلك البراعة والتجاوز في الطرح والأسلوب في ذلك الوقت، الوقت الذي كانت فيه القصص محشوة بالوعظ والنصائح الاجتماعية الفجة والنهايات السعيدة، هناك قلب ينبض بالحب، وقلم يسطر الإحساس الإنساني المرهف.. الدروب الظليلة هي تلك الدروب التي مشى فيها العاشقان، وظلت ظليلة في مخيلتهما بالرغم من تغير الزمن وتغير الدروب، الأقدار وحدها شاءت أن تجمعِ العاشقين، فقط ليعرف كل واحد منهما بعد ثلاثين عاماً ما الذي جرى لذلك الحب الذيٍ كان، كانت ليلة باردة، ممطرة، جعلت الطريق موحلاً لدرجة أن العربة التي تحمل نيكولاي أليكسييفيتش لم تستطع السير، فقرر النزول والمبيت في نزلِ على الطريق، ما كان يعلم أن النزل تديره ناديجدا، لقَد غيرت السنين شكله الى الحد الذي أصبح فيه يشبه قطاع الطرق، أصبح في الستين من العمر، وهي في الثامنة والأربعين، وبرغم ذلك عرفته، يا لغرابة الزمن حين يعبث بالمصائر.

تذكّرا الكثير من تفاصيل ذلك الحب، وعرف بأنها لم تحب رجلاً آخر من بعده، وانه، من ناحيتها، فات الأوان للّوم والعتاب، بعد أن هجرها بكل قسوة طيلة السنوات الماضية، كان يظن أنها سامحته وغفرت له، فما دامت قد عرفته منذ أول لحظة رأته فيها، وتأكد بنفسه من بقاء حبها له، فلابد أن تكون قد سامحته، وعندما أراد أن يعرف ذلك منها بالقول: يبدو أنك غفرتِ لي ،قالت له: لا يا نيكولاي أليكسييفيتش، لم أغفَر لك، وما دام الحديث قد مسّ مشاعرنا، فإنني أقول بصراحة، ما كان بوسعي أن أغفر لك، وكما لم يكن لديّ أيامئذ أحد أعز في الدنيا منك، بقيت هكذا فيما بعد، لا يجوز لي أن أصفح عنك.

وهكذا كسر إيفان بونين توقعات القارىء، في زمن كانت فيه القصص، إن لم تنته بموت أبطالها، فإنها تنتهي بالزواج وتحقيق الأماني والعيش السعيد، ليعوض العاشقان ما فاتهما من مباهج، بل غادر نيكولاي النزل ومضى في تلك الليلة الباردة الماطرة، وهو يدرك في قرارة نفسه أن كل شيء قد تغير.

كل شيء، أما الحب فأمره مختلف.. ومُحيّر.

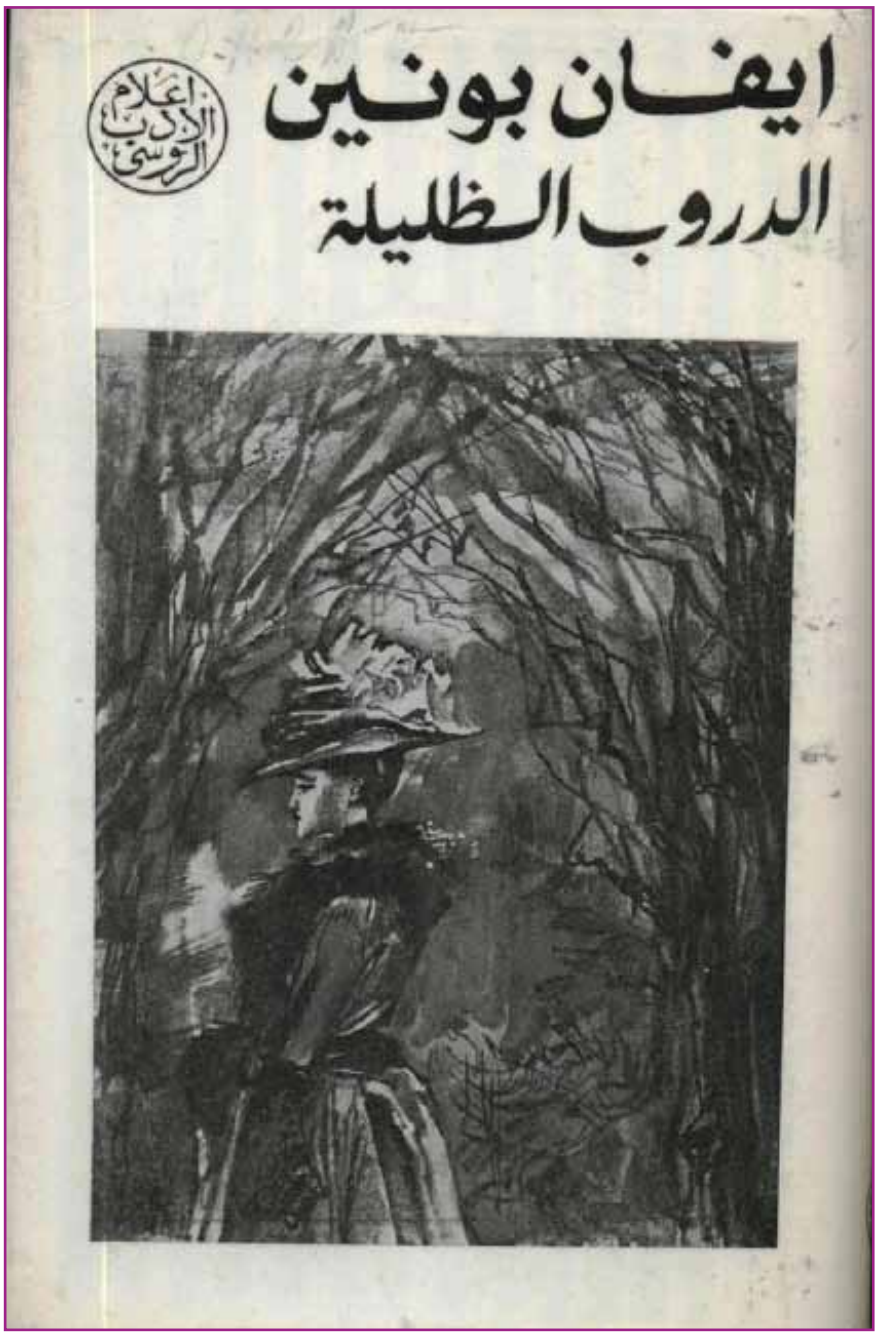

manarat
www.almadasupplements.com
رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم
المدى
رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين
سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق
منارات
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون

بونين يدق بابنا

د. ضياء نافع

لا يمكن أن يكون عنوان مقالتنا صحيحاً إذا قلنا - (بونين في العراق) , فهو ليس مثل غوركي أو تشيخوف أو بوشكين أو دستويفسكي أو تولستوي أو تورغينيف...الخ

اسمـاء الأدباء الروس الكبار والمشاهير عندنـا ، و الذين بـدأت شهرتهـم بالتدريج منذ الثلـث الأول للقرن العشرين فصاعداً ، لكن بونين مع ذلك دخل الى العراق بشكل متأخر مقارنـة بتلك الأسماء، وإنه دخـل دون (تأشيرة دخول ، أو فيـزا كما نقول) ، لأنه كان مـن المغضوب عليهم في الاتحاد السوفيتـي بعد رفضه لثورة اكتوبر، ثم هجرته من روسيا السوفيتيـة، ثم (ثالثة الأثـافي!) وهي حصوله على جائزة نوبل للآداب في الثلاثينيات، و لكنه – مع هذا – فقد حصل علـى (الإقامة !) القانونية في بلدنـا رغم هذا الدخول غير القانوني والمتأخر ، ويمكن الآن أن نقول إنه موجود بيننا في العـراق – بشـكل أو بآخـر – مثل بقية الادبـاء الروس الكبـار، الذيـن ذكرناهـم اعلاه، رغـم إنه لم يصـل بعد الى شهرتهم وشعبيتهم الواسعة.

بونـين في العـراق يرتبـط قبـل كل شيء باسـم د. جودت هوشيار، والذي يمثل ظاهرة فريدة وجميلة جدا في تاريخ الأدب الروسـي في العراق ، إذ إنه جاء الى الادب الروسي مـن اختصاص بعيـد جـداً عـن الادب ، وهـو الهندسة و الكهرباء ، فقد تخرّج في معهد الطاقة (جامعة الطاقة الآن) في موسكو، حيث كان معنا ضمن الطلبة العراقيين الاوائل في الاتحـاد السوفيتـي بدايـة الستينيـات ، وحصـل على شهـادة الدكتـوراه في اختصاصه ذاك ، وعـاد الى العراق وعمـل بشـكل ناجح هنـاك في مجـال اختصاصـه ، ولكن جـودت كان عاشقـاً كبيرا لـلادب الروسي ،وقـد تفاعل مع هـذا الادب بحكم دراسته الطويلـة في روسيا واتقانه للغة الروسية بشكل معمق وممتاز، والعشق يمنح للعاشق قوة جبّارة وخارقة كما هو معروف، و يستطيع العاشق بها أن يحقق المعجزات ، وهذا ما حدث فعلاً ، وهكذا برز د. جودت هوشيـار في مجال الترجمة عن اللغة الروسية ، وأصدرت لـه وزارة الإعلام العراقية كتابا مترجمـا عن الروسية في بدايـة السبعينيات عنوانه – (دراسـات معاصرة)، وفيه إشـارات عميقـة الى بونـين ، ثـم نشـر قصصـاً مترجمـة لبونين في الدوريات العراقية ، وانتبه الى ترجماته استاذ جيلنـا د. علـي جواد الطاهـر ، الذي كان يرصـد ما يجري آنـذاك في مجـال الأدب بعيونـه النقديـة الذكيـة ، وطـرح استفسـاراً حول بونـين ، إذ لم يكن لا بونـين ولا هوشيار من الاسماء المعروفـة آنذاك للطاهر، ويفخر د. جودت بكل هذه التفاصيل حول بدايات مسيرته الترجمية حول بونين ، والـذي تبين انـه (اي جودت هوشيـار) كان من المعجبين جـدا بادبه ومن المطلعـين بعمق على ابداعـه. وأذكر جيدا ، إن صديقـي المرحـوم د. إحسـان فؤاد (الشاعـر الكردي الرقيـق وخريج جامعـة موسكو والمثقـف العميق) ، الذي كان مديـراً عاماً لمديرية الثقافة الكرديـة في وزارة الإعلام (و التي أصدرت بالذات ذلك الكتاب آنذاك) كان معجباً جدا بموهبـة جودت الترجميـة والأدبية عمومـا ، وقد حدّثني مرة عن ذلك . واستمر د. جودت بتقديم بونين لنا لحد الآن في نشاطـه الأدبي المتنوع ، اذ لانزال نقرأ نصوصا لبونين بترجمتـه ودراسات عميقة وجميلـة عن مكانته في مسيرة الادب الروسي، وكم اتمنى أن أرى يوماً كتاباً خاصاً يضم تلـك الكتابات البونينية (إن صحّ التعبير)، خصوصاً وإن جـودت هوشيـار أصبح اليـوم نجماً من نجـوم الباحثين العراقيـين في مجال الادب الروسـي والعالمي أيضاً ، وذلك عندما (تحرر!) من اختصاصه الهندسي الكهربائي وتفرّغ كليّا لعشقه الادبي